الهلال

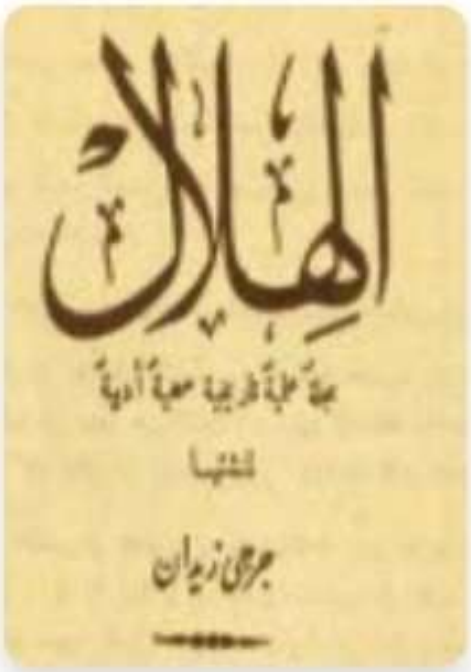
...لبنى المريضة فى العراق

مايو ١٩٩٦ - الثمن ٢٠٠ فلس



الثقافة والجماهير

الهلال



عنوان المقالة: رحيل الدكتور عصمت سيف الدولة شيخ جبل البدارى

بقلم: مصطفى نبيل

تاريخ الإصدار:1 مايو 1996





د . عصمت سيف الدولة

مذكرات قرية

رحيل الدكتور عصمت سيف الدولة

شيخ جبل البدارى

بقلم: مصطفى نبيل

ARCHIVE

● طلبت من د. عصمت سيف الدولة أن يكتب سيرته الذاتية فآثر كتابة السيرة الذاتية لقريته «الهامية» ، فلقد توحد مع أهلها، وكان على أكثر أحداثها شاهدا، فهو ابن القرية التى تسريت حكاياتها إلى مسامه.

ومن يقرأ «مذكرات قرية» يدرك كيف يعيش الكاتب معاناة وحياة أهله، وكيف يعبر عن مشاعرهم بدقة وإيجاز، وكيف خسره عالم الأدب وكسبه عالم السياسة والقانون .

يقول فى مقدمة كتابه : «تلقيت من كل مجتمع حكايته فاجتمع لى منها خليط من الخبرات الفائقة لو أردت لأنشأت منها مذكرات شائقة ، إلا أنى لا أريد، فقد تعلمت من علم النفس وعلمائه أن السير الذاتية لايمكن أن تكون صادقة ولو كان أصحابها من الصادقين، لأنها استجابة لغريزة إنسانية مسيطرة، النزوع إلى

البقاء بعد الفناء، خوفا دفينا من الموت فحرصا متينا على الخلود، إنها ذات الغريزة التى تولد فى الإنسان نوازع عاطفية غير عقلانية، يحب أولاده أكثر من ذاته حتى ولو كانوا مارقين؟!» .

ورغم أنه كتب مذكرات قريته ولم يكتب سيرته، فإن هذا الكتاب يجعله من الخالدين بجدارة، ويكاد يكون أهم ماكتب عن الصعيد، وهو عمل غير مسبوق، قدم فيه رؤية صادقة تتجاوز كتابات وأبحاث الأنثروبولوجيين، ذلك أن نشأته ورهافة حسه ويقظة نفسه علمته أن يحيط إحاطة واسعة بحياة أبناء قريته، يعرف العادات والأمثال والحكايات والفنون والألعاب، فرسم ذلك كله في لوحات معبرة، واستطاع بنفسه الحساسة وإخلاصه لقريته اختراق ما حوله بقدرة عالية على صياغة عبارات رائقة هذا بعد أن أعد نفسه إعدادا كبيرا بكثرة الخبرة وسعة التجربة.

ومن النماذج الدالة على ما أقول: الصورة التى رسمها للمرأة الصعيدية والتى قدمها بقوله: «تملك الزوجة، ربة البيت، وحدها كل الأجوبة الروحية والعاطفية والمادية على أسئلة الرجل، الزوج، وهى بعد التى قدمت حجر الأساس الاقتصادى لبيت الزوجية الذى تديره، ولها فيه فضلان، فضل الادارة وفضل التمويل، ولزوجها فضل العمل، فلا ينكر عليها أحد بعد هذا أنها ملكة البيت وما فيه.. إنها لاتخدم أحدا، ولا زوجها، وإنما تدير مملكتها فى بيتها وتعد فيه كل الأجوبة الروحية والعاطفية والمادية على اسئلة الرجل الزوج، والأولاد من بنين وبنات.

الزوجة فى القرية لا «تحب» ولا «تعشق» زوجها، تلك وأمثالها أوصاف أدنى بكثير من تلك العلاقة بين الزوجين، أدنى وصف الى حقيقتها إنها وحدة مصير. لا بل وحدة وجود. فهما لايلتقيان منفردين إلا نادرا، وإن تحادثا فلا يهزران، ولايتلامسان غزلا، ولايتغازلان حديثا، ولايعرفان عادة القبل على الشفاه، ولايتعانقان اذا تقابلا بعد غياب، ولايفقدان فى كل الظروف الوقار والتوقير والحياء، ولاتنادى المرأة زوجها باسمه ولايناديها باسمها إلا اذا كانا منفردين، وإن تجادلا فصيغة النداء تدل على مدى الاتفاق والاختلاف والتودد. إن قالت له «ياخوى» فهى متفقة، وإن نادته «ياولد عمى» فهى تتودد.. وإن قالت له «ياولد الناس» فهى غاضبة. فالزوجة تعرف وزوجها يعرف إنها إن غضبت فسيشقى، ستظل اسئلة فى بيته بدون أجوبة.. يخسر هو كل شىء ولا تخسر هى شيئا.

ولايعنى هذا أن المرأة فى القرية لاتعرف الحب.. بالعكس إنها تعرفه عاطفة متأججة منذ أن بلغت مبلغ النساء، كل ما فى الأمر إنها أحبت حتى الوله وعشقت بكل كيانها الزوج بصفته وليس شخصا

بعينه».

وهكذا ينتقل الكاتب واصفا كل مناحى الحياة فى الهامية.

● وصية في كتاب

وما بين نشر الجزء الأول فى كتاب الهلال فى أغسطس ١٩٩٥، وبين نشر الجزء الثانى الذى سيصدر خلال شهر مايو ١٩٩٦، رحل عنا د. عصمت سيف الدولة والكتاب بين يديه يراجعه، وتركه لنا وكأنه ترك لنا وصيته وهى خلاصة حكاية قريته التى تقدم نموذجا لكل قرى مصر وإن اختلفت بعض القسمات من قرية لأخرى، وتؤكد تجربة قرية «الهامية» على المساواة بين جميع أهل القرية، فسكان القرية جميعا يعودون إلى أصل واحد، ومن عائلة واحدة، وعانت القرية طويلا من فساد السلطة وتحيزها أحيانا للمستعمر البريطانى وأحيانا أخرى للإقطاع الذى انتزع أرض الجزيرة من أصحابها، ورغم شيوع الخوف من السلطة الى حد فرار شباب القرية الى الجبل أو حقول الذرة أو القصب بمجرد اقتراب رجل بملابس رسمية من القرية فإن المقاومة الذكية التى قادها الشيخ عباس نجحت فى حماية شباب القرية من اصطيادهم وترحيلهم لخدمة المجهود الحربى البريطانى خلال الحرب العالمية الأولى ونجحت القرية مرة أخرى مع قيام ثورة ١٩١٩ فى استرداد أرض الجزيرة، وبقى الصراع مع الطبيعة، القيضان والجفاف ورمال الجبل، وفى مواجهة الفقر والظلم. وتقدم تجربة «الهامية» التى نقلها د. عصمت سيف الدولة وسائل كسب هذا الصراع.

● النبع الصافى

عندما طلبت من الكاتب سيرته الذاتية، كنت انتظر قصة وظروف جيل بأكمله، وأعرف أن مفتاح شخصية الكاتب تتمثل فى نبعين لعبا أهم الأدوار فى حياته، أحدهما الصعيد والثانى تيار الوطنية الصادقة، خرج الكاتب من أعماق الصعيد، وترك الصعيد بصمات واضحة على تكوينه، الصلابة التى لاتعرف المساومة، الشجاعة فى التمسك بالحق كالقابض على جمرة، وقصة الكاتب تقدم رؤية جديدة على أن الوجه البحرى يستقبل الموجات الوافدة على مصر. ويأتى من الصعيد رياح تأكيد الهوية ومقاومة المؤثرات الأجنبية، ومن تفاعلهما تتشكل البوتقة المتوازنة التى تصنع السبيكة المصرية..

ويصدق هنا قول د. حسين مؤنس فى كتابه مصر ورسالتها .. «لايزال الصعيد وأهله موضع فخار مصر ومصدر قوتها وحصنها التى تركن إليه ، وما من شىء تراه فى مصر إلا ولأهل الصعيد فيه الأثر البعيد.

يقدمون لهذا البلد أجيالا من خيرة رجاله الذين قادوا أموره ووجهوا سياسته

ورفعوا رأسه فى كل ميدان.

أما النبع الثانى الذى استمد منه الكاتب مواقفه وتكوينه فهو تيار الوطنية الصادقة التى أثرت فى جيل بكامله، يتمثل فيه أصل من أصول فكره فى الوطنية المثالية الثابتة والمناضلة، بعد أن دخل هذا الجيل مرحلة نضال وطنى ضد الاحتلال البريطانى.. وأدرك أهمية الاستقلال وأهمية تحرير الاقتصاد المصرى من سيطرة الأجانب.

وتفتحت عينا كاتبنا للحياة فى الثلث الأول من هذا القرن، أى أنه عاش طفولة فى فترة غنية بالتحولات الفكرية، كما أن خروجه من أعماق الصعيد، دفعت - بالضرورة - إلى الأمام الصراع بين القديم والجديد، وشهدت الساحة الفكرية ألوانا من النقاش حول شروط وكيفية اللحاق بالغرب، مع وعى كامل بالتمايز بين الغرب التقدم والغرب الظاهرة الاستعمارية، وتولدت شخصية المفكر الذى يبحث عن أجوبة فى مواجهة اسئلة شديدة التعقيد..

وأعرف بعض تجاربه الأولى فقد كان ضمن التنظيم السرى للحزب الوطنى، حزب مصطفى كامل ومحمد فريد، بما يمثله هذا الحزب فى السياسة المصرية من الطهر والبراءة والمثالية، والتمسك الشديد بالمبادىء، والتعامل مع النظرة التاريخية لا النظرة الآنية، وهم أصحاب شعار «لا مفاوضة إلا بعد الجلاء» والذى يعبر عن رفضهم للمفاوضات مع بريطانيا، وعمل الكاتب بعد تخرجه فى كلية الحقوق فى مكتب أحد أقطاب الحزب الوطنى وهو مكتب زكى على باشا والذى تشرب منه أنه مهنة المحاماة هى مهنة «إغاثة المهلوف والوقوف إلى جانب المظلوم».

وانتهى بكاتبنا الحال إلى أن أصبح محاميا فى معظم القضايا السياسية والوطنية، يصول ويجول فى ساحات المحاكم مدافعا عن حق جميع القوى السياسية فى التعبير عن نفسها، وحقها فى تنظيم صفوفها، وحمل رسالتها، وكان شرطه الرئيسى الذى يردده.. «إنه يتبرع ولكنه لايتطوع» كما قدم خبرته السياسية الى كل من يطلبها سواء الأحزاب السياسية أو النقابات العمالية أو المهنية.

وربما كان أعظم ما فى د. عصمت سيف الدولة ثباته على مبدئه، باع نفسه لأمته ولم يتحول عن ذلك قط، وظل يجاهد على الدرب حتى لقى ربه.

● مع الشباب

وما أحوجنا إلى تسجيله لتجربته عندما كان ضمن كتائب الفدائيين الذى قاتلوا الانجليز فى القناة عام ١٩٥١. بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦، كنا ننتظر روايته وأن يقدمها للأجيال الجديدة، خاصة وهو

من القلائل الذين يقفون الى جانب الشباب بلا تحفظ ويؤمن بقدرته على صنع المستقبل، ولايرى كما هو شائع إنه لايوجد أفضل من أيام شبابه. يقول.. «الذين غادروا مرحلة الشباب يفتقدونها ويتمنون لو عادت إليهم أو عادوا اليها اكثرهم شعورا بافتقادها أولئك الذين لايكفون عن إدانة الشباب، إنها حيلة نفسية يعرفها علماء النفس، وموضوع الاحتيال إنهم يحاولون علنا استرجاع شبابهم فى شباب غيرهم بأن يعظوه لعله يسلك ما كانوا هم سالكيه لو كانوا شبابا».

وياليته سجل قصته مع الرئيس السادات، الذى بدأ حكمه بسجنه وانتهى حكمه بسجنه ثانية، فكان من أوائل المسجونين بتهمة تشكيل تنظيم عربى فى مصر، وفى آخر عهده أودع السجن فى اعتقالات سبتمبر ١٩٨١ مع عدد من السياسيين، كان نزيلا فى الزنزانة رقم ١٦ فى ملحق ليمان طره.

● الثورة العربية

انتقل د. عصمت سيف الدولة من الثورة المصرية الى الثورة العربية. فمن الطبيعى أن تكون الخطوة التالية لأبناء الوطنية الصادقة والقادمين من أعماق الصعيد، أن يقودهم الدرب إلى الفكرة العربية.

كان مكتبه فى وسط القاهرة ملتقى العرب ، لا يكاد يصل زائر عربى إلى القاهرة إلا ويسرع الى مكتبه يشهد ندوة دائمة تضم الكثير من المفكرين، تناقش خلالها العديد من القضايا العربية.

وكان الدكتور عصمت من النوع الذى تزداد حبا له كلما ازددت معرفة به، وبقدر ما كان تفكيره مثيرا للإعجاب، كان فى مناقشاته يعبر عن أعصاب هادئة وعقل منظم، ويستعمل أسلوب الاقناع الهادىء.

وهو من أوائل المبشرين بالفكرة العربية، والباحث عن طرق ملائمة لتحقيق أحد صور الوحدة، مع الاستفادة من تجارب الماضى، لذا اهتم بكبريات القضايا التى كانت تشد اهتمام الانسان العربى، ومن هنا كان تفهمه وتفتحه على التيارات الفكرية المختلفة فى كل انحاء العالم.

وبعيدا عن أى انغلاق فى اطار الوطنية الضيقة، يبحث دائما على وسائل عملية وخطط وبرامج محددة لتحقيق الأهداف العربية.. ولايكتفى بالعواطف والمشاعر المشتركة، ولايركن للتراث الثقافى المشترك وحده، ومن كلماته المأثورة «أن قابيل قتل هابيل» رغم الأخوة التى بينهما، فلا يكفى مجرد الانتماء، إنما المهم هو خلق المصالح المشتركة والعمل المشترك.

اشترك فى كل التحركات العربية أيام ازدهار الفكر القومى، أو فى زمن التراجع والضعف، يبحث وينقب عن وسائل تحقيق

مشروع النهضة العربية، والفكرة العربية عنده محورها القاهرة، التى لها دور حيوى فى حياة العرب، تجددهم وتوحدهم وتقود نهضتهم.

وأجمل أيام حياته هى تلك الأيام التى كانت القاهرة فيها مركزا للثوار العرب من كل الأقطار العربية، وبعدها وضع اهتمامه فى دعم الثورة الفلسطينية يتشاور مع قادتها، ويرجع بعضهم اليه فيما يعترضهم من مشاكل، ويؤمن أن جوهر القضية الفلسطينية ومكانتها تقع فى قلب القضية العربية يقول فى كتابه الاعتراف المستحيل .. «لانملك الا أن نقول كيف تغرق الهزائم أفئدة الناس، فيجزعون وتثير الاضطراب فى عقولهم فلا يعقلون وتعمى أبصارهم فلا يبصرون حتى مايقبضون عليه بأيديهم من أسباب النجاة، إن المرحلة المقبلة مرحلة الثورة العربية.. إن مسئولية هذا الميلاد التاريخى لاتقع على الثورة الفلسطينية وحدها، وإن كانت تتحمل قدرا من المسئولية، أما باقى المسئولية فيقع على أولئك الذين يطيب لنا الحديث عنـهم تحت عنوان القوى القومية».

ويرتبط بعلاقات وثيقة بالقادة العرب، وعندما أتجول فى العواصم العربية، التقى بالعديد من تلاميذه ومحبيه، وكنت أدهش لشعبيته في البلاد العربية التى تزيد كثيرا عن شعبيته فى مصر!

وعندما سألت أحد الرؤساء العرب عن المفكر الذى تأثر بأفكاره أجاب على الفور إنـه. د. عصمت سيف الدولة، وقد نشر الحديث فى حينها فى مجلة المصور.

ولم يجف قلم عصمت سيف الدولة طوال عقود أربعة، وتوزعت كتاباته فى موضوعات شتى وفى كتب متعددة، كان آخرها «مذكرات قرية» ويتميز الكثير من كتبه، «الشباب العربى» ، و«ما العمل» و«النظام النيابى»، ومشكلة الديمقراطية» و«الطريق إلي الوحدة العربية» و«بيان طارق» والطريق الى الاشتراكية العربية الذى أكد فيه امكانية قيام الاشتراكية بدون تأثيرات أجنبية ، وغيرها بتقديم افكار حية تساهم فى إحياء الشعور بحق الشعب العربى فى أن يحكم نفسه بنفسه وتجعل العدل رسالة خالدة.

وكما يكتب بقلمه يرسم بريشته فهو فنان متعدد المواهب، فى مكتبه تمثال جميل لإنسان يتخلص من قيوده ويتوق إلى الحرية، ولايعرف أحد إنه صنع هذا التمثال عندما كان معتقلا، ولا تقتصر كتبه على القضايا العامة وحدها بل تشمل أعمالا درامية مثل بيرت وحريق روما.

وبعد.. نتساءل.. هل يغادر كاتبنا دنيانا، وهو يرى أحلامه تبعد، وأماله لاتتحقق؟ ولكنه ترك لنا أعماله حية بيننا، كمن زرع الشجرة وسوف يحين يوما نضج الثمار.

فهل تحل العبرات محل الكلمات؟!